الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ

محمد سيد حاج

رحمه الله

شرح كتاب مدارج السالكين · الحلقة 8

مشاهد المعصية الحيوانية

للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله

نص مفرَّغ من التسجيل وحُرِّر للقراءة: صُحِّحت فيه الهمزات والترقيم والآيات، وحُذفت مواضع لم يتبيّن فيها الكلام. المرجع هو التسجيل الصوتي.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. كتاب مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين هو من الكتب القيمة، لأنه يتحدث عن مقامات إيمانية وعن منازل قلبية، القلب ويتدرج في هذه المراقي والكمالات حتى يصل إلى بغيته، وبغية القلب مرضاة الله تعالى وحبه ورضاه، مع تحقيق العبودية الحقة له، فإن من الناس من يدعيها ومنهم من يزعمها وهو ليس على العبودية. ولذلك مقام توبة الذي كنا نتكلم عنه في دروس ماضيات من منازل إياك نعبد وإياك نستعين هو مقام من مقامات تطهير القلب، ولذلك بدأ المصنف رحمه الله تعالى كتابه بمنزلة التوبة ليدلل على أن التوبة وإن كانت هي عبودية يحتاجها المسلم ولا يترفع على التوبة، لأن بعض الناس قد يقول إن منزلة التوبة هي منزلة العوام والعصاة، وهذا ليس صحيح، فإن الله قد تاب على نبيه، وقد تاب الله على النبي، فهذه توبة كمالات وتوبة نهايات وليست بدايات. لذلك حاول ابن القيم أن يقول: القلب الذي يريد أن يترقى وأن يسير وأن يتدرج إلى منازل الكمال لابد أولًا أن يكون قلبًا صافيًا مهيئًا ومعدًّا، تكون فيه عبودية الله ومعرفته، ومن ثم يستقيم الإنسان ظاهرًا وباطنًا على الدين.

هذا المعنى يؤكده ابن القيم رحمه الله تعالى لما تحدث عن بعض الألفاظ المرتبطة بالتوبة كلفظ الاستغفار، هو من الألفاظ المرتبطة بالتوبة، وأحيانًا يرد الاستغفار بالتوبة مقرونة، وأحيانًا يرد الاستغفار مفردًا، لقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾. الاستغفار ورد مفردة: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم

مَّتَاعًا حَسَنًا﴾. فقوله: استغفروا ثم توبوا، ليس من قبيل الحشو، فهنا للاستغفار معنى مغاير لمعنى التوبة، أو ليس هو الواحد وإلا لكان هذا من قبيل المترادفات: استغفروا ربكم معناه توبوا، وتوبوا إليه معناه توبوا، والقرآن منزه عن ذلك لبلاغته. فالتوبة تعني شيء والاستغفار يعني شيء. الاستغفار طلب المغفرة، والمغفرة الستر، ويسمى الخوذة التي يضعها المقاتل على رأسه لتقيه الضربات، تسمى شنو؟ مغفر، والعمامة لا تسمى مغفرة، لماذا؟ لأن العمامة لا توقي ضربات ولكن المغفر يقيها. فلو عرفنا معنى المغفرة، والاستغفار هو طلب من الله الستر من الله. يا إخوان كثير من الناس لما يقول: استغفر الله، ان ربنا يمحى شنو؟ يمحى الذنوب، وهذا ضرب من دروب الاستغفار، وليس كل معاني الاستغفار. إذا ورد الاستغفار مفردًا كان بمعنى التوبة، بمعنى محو الذنوب، والإكثار من الطاعات، والإعانة على الخيرات، والاستقامة عليها في المستقبل، ووقايتك شر نفسك، أنه ربنا يقيه شر شنو؟ نفسك. هذا إذا ورد الاستغفار وحده. بعد كل صلاة بتقول شنو؟ استغفر الله. ماذا تريد؟ لما تقول: استغفر الله، استغفر الله، استغفر الله، ماذا تعني؟ ماذا تريد؟ تريد استقامة كاملة وعودة تامة إلى الله، والدليل هذه الصلاة التي بين أيدينا، بالرغم من أنها طاعة غير أني ألمح فيها تقصيرًا تجاهك يا ربي ويا مولاي، فلذلك اغفر لي واحقني بعناية من عندك. أما إذا وردت التوبة والاستغفار معًا، تتعلق التوبة بالماضي والاستغفار بوقاية الذنوب في المستقبل: قلت ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، قلت استغفروا ربكم بمعنى أن يقيني ربي في المستقبل بعد أن أقلع من الذنب ألا أعود إليه، هذه مغفرة، وتوبوا أن أقلع عن ما مضى وأن أندم وأن أعقد العزم على أن لا أعود. بهذا المفهوم يؤكد ابن القيم معنى جليل، لم أجده إلا عند العلامة ابن القيم رحمه الله، يقول: بالجملة هي الرجوع والعودة إلى الله. وهل ينبغي أن تكون في أذهاننا جميعًا؟ بهذا المعنى لا يوجد أحد لا يحتاج إلى التوبة، ليه؟ لأن عدنا إلى الله في جوانب ولكنا قصرنا في شنو؟ في أخرى ولا كيف؟ في أشياء نحن محتاجين شنو؟ نصلحها ونقوم ما فيها من الاعوجاج. لذلك يقول رحمه الله تعالى: التوبة مبدأها الرجوع إلى الله تعالى، وأن تسلك صراطه المستقيم هداية إليه، صح ولا ما صح؟ أن تسلك صراط الله المستقيم شنو؟ هداية إليه. ولذلك المقتدي يطلب الهداية، ومن ذلك قول المصلي: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، كم مرة؟ يا أخي اهتدينا خلاص اهتدينا، جينا صلينا في الجامع، تاني أكتر من كده أنت محتاج إلى الهداية، كما قال شيخ الإسلام: بعدد أنفاسك، ما غاب عنك من الحق وما عرفت من الحق وقمت عليه قليل، وما فاتك من الحق، والحق الذي عرفته وعملت به تحتاج إلى ثبات وإعانة عليه، وكل ذلك داخل في معنى الهداية. فلذلك صاحب الهداية لا يفتر أن يسأل الله الهداية حتى يلقى ربه: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

طيب، يقول ابن القيم: إذا كانت التوبة في الدنيا الرجوع إلى الله والهداية إلى صراطه المستقيم، فإن ذلك ممتد إلى الهداية إلى الصراط الذي ممدود على جهنم تهدى إليه وتسير وتعبره. ولذلك يقول ابن القيم: من سار في دنياه على صراط مستقيم سار في أخراه على الصراط المستقيم بدون خذلان، فكأنه يربط بين شنو؟ بين الصراط، بين صراط الله المعنوي في الدنيا وبين صراط الله الحسي على جهنم في الآخرة. حتى صراطنا المستقيم دي وين؟ هو صراط يسير فيه المؤمن بخطى ثابتة، موجود في ثنايا القرآن، وقد قال عليه الصلاة والسلام في ذلك الكلام الكثير بأنه مثل لذلك، لما جعل خطًا في الأرض وتلا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾، خطوط عن جانبيه، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾، ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، صراط الله المستقيم، الطريق الذي ليس فيه عودان، ومن سار عليه بثبات سار يوم القيامة على صراط الله على جهنم بثبات. لذلك هذه مسألة مهمة. طيب، يقول ابن القيم: ومرجع ذلك كله إلى الله، ﴿اهْدِنَا﴾، من الذي سيهديك إلى الصراط؟ إذا لم يهديك ربك هداية إلهام وتوفيق لا توفق: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، الهداية من الله. ولذلك يقول رحمه الله تعالى كلام لطيف، قال: الصراط مبدأ وعودًا إلى الله، الصراط مبدأ وشنو؟ وعودة، في الدنيا الصراط، وعلى الصراط سور، ستور مرخاة، ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثل يعني بذلك، وقائم على رأسك، الحديث الطويل، حديثه عليه الصلاة والسلام في الصراط. فالصراط مبدأه في الدنيا ومنتهاه إيه؟ في الآخرة، فالصراط مبدئا ومعادا، معاد يعني وين؟ في الآخرة إلى الله. قال: وهذا تفسير أو بعض تفسير أسمائه الأول والآخر، قال: فهو الممد، في الآخرة، والمعد والممهد في شنو؟ في الدنيا، الهداية، زودك بالجوارح، وأعطاك العقل، وأرسل إليك الرسل، وأنزل إليك الكتب، وقاموا دعاة يدعون إليه، فلذلك صراطه بين سبحانه وتعالى.

بعد هذا الحديث عن الاستغفار والتوبة، وأن معنى التوبة ليس مجرد إقلاع عن الذنب، إنما الرجوع إلى الله بالكليات، لأنه إذا في زول عنده ذنب أقلع منه لكن عنده حاجات تانية ما أقلع منه، هل يعتبر تائب؟ يستحق اسم التائب فيما تاب، ولا يستحق اسم التائب في شنو؟ في الأمور التي لم يتب منها. ولذلك هنا يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: إن التوبة هي الرجوع الكامل إلى الله، الإقبال التام، وأن مبدأها ومنتهاها شنو؟ إلى الله تعالى. الإخوان شوف التوبة دي ربنا كان ما تاب عليك ما بتوب، قال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾، يعني عشان هم يتوبوا فتابوا. بعد ما تابوا أمدهم في الآخرة بنور يجيزون به الصراط، وهذا وارد: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ لبعض من على الصراط، ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾، ويقولون الذين آمنوا: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ هذا على الصراط، هذا مرد الله لهم، ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾. فنور المؤمن لا

ينقطع معه إلى أن يلقى الله وإلى أن يجيز الصراط، ولذلك قال: بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة. وهذا انتقال عجيب، انتقال من الممهد إلى شنو؟ من المعد والممهد إلى الممد، يمدك في الآخرة، يمهد لك في الدنيا يوفقك، تقوم وتصلي وتفعل، سبحان الله يا إخوانا شوفوا، وهذا سوف نتعرف عليه الآن، بعد قليل، أن التوفيق من عند الله.

يقول ابن القيم ختام منزلة التوبة، يعني الفصل الذي نحن فيه الآن هو ختام منزلة التوبة، يقول رحمه الله: المؤمن إذا عصى الله أو رأى غيره يعصي، يقف على مشاهد مستفيدًا مما وقع من المعاصي، يستفيد مما وقع من شنو؟ من المعاصي. قال ابن القيم: مشاهد الخلق في المعصية، مشاهد شنو؟ الخلق في المعصية. إذا عصيت وتبت، ما هي العبر التي استفدتها؟ ما هي الدروس التي وقفت عليها؟ وبعض الناس عصى أمامك، وأنت رأيته يعصي، ماذا تستفيد؟ في زول؟ جابوه وقالوا ده زنا، أو سرق، أو قدامك قاعد يعصي، أو قدامك قاعد يسيء إلى والده، أنت بتستفيد شنو؟ أنت اللي ساكت المفروض تستفيد. هذه الفوائد التي هي مشاهد الخلق في المعصية، بدأ ابن القيم عنها، قال: وهي ثلاثة عشر مشهدًا، أربعة مشاهد هي مشاهد المنحرفين فكرًا وعقيدة، والثمانية الباقية هي فوائد وعبر ومشاهد أهل الإيمان عند العصيان، إذا عصوا هم أو عصوا شنو؟ غيرهم.

طيب، مشاهد أهل العصيان من المنحرفين، قال: المشهد الأول مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة. الناس لمن يعملوا المعاصي دي المشاهد بتاعة الخلق إذا عصوا، مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة. قال ابن القيم: هو الجهال الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان، هكذا قال تعالى، قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾. بعض البشر خلق لقضاء شهوته، يظن هكذا، فهو يود أن يتقلب في صنوف المتع المادية والملذات الحسية، أكله وشرب وجماع. قال: لا فرق بينه وبين الحيوان إلا والنطق، بأربعة ماشي واثنين رافع راسه فوق. قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: لا تتخذوا ظهور الدواب منابر، فرب مركوبة أفضل من راكبها وأشد ذكرًا لله. ينبغي أن تعلم أن الحمار يذكر الله، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، وحكى عن الطير صلاة: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، وفيه ناس صلوا والله حيوانات أحسن منهم، ده كلام الله: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾، وفي الفرقان: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾. طيب، لذلك تكلم عن مشاهد الحيوانية، وهي الذين طبائعهم كطبائع الحيوانات، وأخلاقهم كأخلاق البهائم.

طيب، بدأ ابن القيم يتحدث عن نفوس بعض البشر، نفسه كلبية، أي نفسه كنفس الكلاب. طيب، أوريك طبائع الكلب وقيسها، هل موجودة في بعض البشر ولا ما في؟ قال: لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها وحمى سائر الكلاب أن تقع عليها، لكن الكلب جشع. هل في نوع من البشر كذا؟ إذا من الناس من نفسه شنو؟ كلبية، طيب همه شبع بطنه من أي طعام، لا يبالي بالميتة والمزكاة، يعني خروف ميت فطيسة بياكل ولا بياكل؟ وكان لقى قراع خروف مذبوح في الصينية، الناس بعد ما ذبحوا وكسروه. ومن الناس، الحلال والحرام عنده سيان. بعض الحيوانات أكرم نفس من حيوانات أخرى، فمثلًا النسر لا يقع على جيفة، إلا يأكل فريسته حية بعد أن يقتلها، وأن يطمئن إليها يبدأ بعد ذلك في أكلها، أما النسر من علوه لا ينزل على الجيف، والجيف المقصود هنا شنو؟ الحرام والدنيا. قال عيسى عليه السلام: الدنيا جيفة، قال: وطلابها كلاب. الدنيا شنو؟ جيفة، وطلابها كلاب. قال: وجد عيسى عليه السلام منظرًا يمزح بعضها بعضًا، تتداعب إخوان إخوان، فنفس الكلاب مرت على جيفة اقتتلت، لمن لقت الفطيسة. قال عيسى: هكذا الدنيا جيفة وطلابها كلاب، توقع المودة بين الأحبة، ناس يكونوا كويسين، أصلًا شوف ما تعمل معه بيع وشراء ولا معه في مشاركة، تلاقيه في الجامع وصاحبك وأخوك وتضحكوا، مما يعملوا شراكة، يقول لك: غشاني الشغل، جيبوا الأجاويد، فضوا الشراكة، حاصل ولا ما حصل؟ ما السبب؟ الدنيا جيفة، وشنو؟ وطلابها كلاب.

طيب، الكلب عنده ميزة، إن أطعمته بصبص بدنبه وإن منعته هرك ونبحك. هل في بشر زي ده؟ في ناس التقوا مع الكلاب في الصفات. وإن كان القاضي أبو بكر محمد ابن خلف ابن المرزبان الذي كان في القرن الرابع الهجري، سنة تلتمية وسبعتاشر هجرية، هذا القاضي ألف مجلدًا يقع في ست مئة صفحة، اسمه فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب. أي آية فيها كلب جابها، في آيات ربما ذكر فيها الكلاب؟ خاصة العلماء طلاب الدنيا، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. طبعًا يا إخواننا النبز بالحيوانات ده، يا حمار، شنو ما بجوز بقى؟ هذا ما يصح، لكن اليهود ربنا قال الحمار أحسن منهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾.

فالقاضي ده عنده مشكلة، جاب الأحاديث، حديث صحيح قال: إني نهيت عن قتل الكلاب لأنها أمة. الكلمة أمة لأنه ربنا قال شنو؟ ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾، الكلاب فيها ولا ما فيها؟ ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، أمم أمثالكم عندها طبائع، وأن بعضكم يقتبس طبائع فتكون طبائعه كطبائع بعض الحيوانات.

عشان كده قام عمل مقارنة، قال الكلب عنده وفاء أحيانًا لصاحبه، لكن بعض الناس تصادقه ولا وفاء له. زي كذا قام ألف ست مئة صفحة سماها شنو؟ فضل الكلاب على كثير ممن لبس شنو؟ الثياب. أنا مجلدك عندي، وقريت من الأول لحد الآخر الحمد لله. وحكى قصص حصلت له، وهو معناه كان بيودهم ويحبهم خانوه وغدروا به، فغضب منهم غضب شديد، وقام ألف شنو؟ فضل الكلاب على كثير شنو؟ من لبس الثياب. وحتى حكى فيها القصة من أعجب ما رأيت، هي من القصص الخيالية، بغرض تجسيد قيم ومعاني اجتماعية لتصحيحها.

قال: ذهب رجل إلى إبليس ولقيه، وقال لإبليس: عندي مشكلة كبيرة وما أظن أني أجد حلًّا إلا عندك. قال له إبليس: احكي، في شنو؟ قال: مشكلتي جاري. قال: جاري شديد الميل إلي، رؤوف علي وعلى أولادي، شفيق حبيب، زول بحبنا حب شديد، زول حبوب، إذا استقرضته أقرضني، ولا يرد لي دينًا، ديني لما أجي أرجع له ما بردها، بقول: يا إخوان بيناتنا يا أخي، حق الجيرة أكبر من كده. قال: وإذا غبت يوم أسافر، قام على عيالي يرعاهم، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، لا يقصر فيه. قال إبليس: نعم الجار، ما هي المشكلة؟ قال: هذا الجار غني وأنا أريد له الفقر والدمار، مشكلتي أنني كلما رأيته يتنعم كلما ازددت ألمًا، أريدك أن تدلني على طريقة تدمر هذا الجار، لتنتهي مشكلتي وأرتاح. قال: فصرخ إبليس، فاجتمعت الأبالسة الصغار، ده كلام ابن مرزبان، فسألهم، قال: أتظن الله خلق خلق شر مني؟ قالوا: لا. قال: اليوم وجدت من هو شر مني، وأشار إلى الرجل. يعني في ناس حاقدين لدرجة أنه إبليس ذاته يحتار فيهم: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

قام حكى الكلام ده في شنو؟ في الكتاب وأعقبه بقوله: يتلقاك بالبشر والمحبة، ويضمر لك الغش والمسبة. في صاحب الكلب أحسن لك مني، الكلب بيحرسك وبيعمل لك بعض الفوائد، ده غير الشر ما بتجيك منه. ده معنى الكتاب يعني خلاصة شنو؟ مفهوم الكتاب، هو يناقش القضايا الاجتماعية كأنه يريد أن يصلح المجتمع.

طيب، قال: ومنهم من نفسه نفس الحمارية. النفس الحمارية إخوانا في ناس من البشر زين حمير، أنت إخوانه ما تزعل. ونهانا عن رفع أصواتنا، قال شنو؟ ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾. طيب الحمار ماله؟ أول حاجة لم يخلق إلا لأمرين: لكد وعلف، ياكل ويشتغل. الحصان بيجاهدوا عليه، لم يخلق الحمار إلا لكد وعلف، ومن الناس من خلق في دنياه لكد وعلف، ما عنده رسالة في الحياة، يشتغل بالليل والنهار، يلم القروش، ويجي يضرب الباسطة، كويس، والكبد واللحوم، ما عنده أي رسالة في الأرض. يا أخي ممكن تكون كذا، قال ليه؟ طيب الحمار كلما زيد في علفه كلما زيد في كده وتعبه. قال شنو؟ الحمار أقل بصيرة، ما عنده

بصيرة. الحمار ما عنده بصيرة إخواننا، يعني أبلد الحيوانات ممكن يكون شنو؟ الحمار أو الغراب، لأن إخواننا ابن القيم تتبع ذكر الحيوانات في القرآن، يعني مثلًا لما قتل ابن آدم، أحد ابني آدم أخاه، ما بعث الله له إلا شنو؟ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾، ليه؟ الغراب، ليه الغراب بالذات؟ شف التفسير بتاع ابن القيم، الآية بتقول شنو؟ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾، صار في غربة، وأقرب الألفاظ إليه آنذاك غراب، أقرب الحيوانات إليه شنو؟ الغراب، قالوا: انظر بين غربته مع نفسه وندمه وبين غراب لاح له في الأفق شؤمًا لفعله، شفت كيف؟ لذلك ابن القيم تتبع هذه المسألة، فقلنا شنو؟ قلنا الغراب أقل بصيرة، الحمار أقل بصيرة، وهكذا.

طيب، ومن النفوس نفوس سبعية غضبية، لا تقوم إلا على العدوان ولا تستلذ إلا بأذى الآخرين، حاصل ولا ما حصل؟ طيب بمعنى همته وطبعه أن يقهر الناس، لا يحترم الإنسان، ولا يتعامل مع البشر من خلال آدميتهم، يتعامل معهم من خلال سبعيته، يعني أشبه شنو؟ السبع المفترس. طيب قال: طبيعته كطبيعة السبع، إخوانا في ناس عدوانيين، وكل من اتبع قوته الغضبية بفش ويكوري ويهيك في الناس ويشاكل ويأذى ويتكلم ويضرب ويقتل، هذا شنو؟ نفسه نفس شنو؟ سبعية. ابن القيم يقول شنو؟ قال: حرمت لحوم السباع لأن اللحم مأكول يؤثر على الطبع، فمن أكل لحوم السباع كان خلقه شرسًا، حتى لا تتقاضى طبعًا ذميمًا، نهاك الله عن أكل السباع، وكل ذي ناب من شنو؟ من السباع، وكل ذي مخلب من شنو؟ من الطيور.

طيب، قال: ومن الناس من نفسه فارية، زي الفأر، أنا بوريك صفاته، أنت شوف في ناس أولًا فاسق بطبعه، مفسد لما جاوره، خلق للضر، الشدة في الناس ولا ما في؟ في ناس ما عندهم شغلة إلا الضر، الدولاب يجرموا الهدوم كلها، يا أخي ما تمسك واحدة، جرمها لحد ما تنتهي من ده كلها، وتشبع بعد ده شغل تاني، الشغل ما شغله شبع، يقرب ده يقرب ده. ولذلك اسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم شنو؟ الفويسقة، هذا فقهه عليه الصلاة والسلام في شنو؟ في الفار، الفار المضر. وفي ناس مضرين، إخوانا والله في ناس الفار بالنسبة لهم ما مضر من كثرة ما أناس مضرين، إخوانا حصل ولا ما حاصل؟

طيب، بعدين قال: ومنهم من نفسه على نفس ذوات السموم من الحيات المؤذية، كالحية والعقرب. طيب وده نوعه في البشر، إخواننا العقرب والحية بتؤذي، بتؤذي ليه؟ هو ليس بقاتل على الإطلاق وليس بيضار على الإطلاق، ولكن النفسية الغضبية والخبيثة هي التي تجعله إذا خرج منه وصادف محل، ضرب ابن القيم بأصحاب النفوس السمومية بالمعيانين من البشر، العين الحارة، أي زول عينه حارة دا نفسه نفس سمومية كالعقرب والحية، ليه؟ ابن القيم يقول شنو؟ يقول: العين وحدها لا تفعل شيئًا، إنما النفس الخبيثة السمية

التي فيه، إذا تكيفت بكيفية غضبية النفس مع شدة حسد وإعجاب وصادفت أعزل من سلاح الذكر المتحصن به أردته، وربما أصابه العطب أو أصابه الأذى. لما نظروا إلى سهل ابن حنيف أو عامر بن ربيعة وهو يغتسل، فقال من نظر إليه: لم أرى جلدًا ولا كجلد مخبأة، دا بس أبو العروس قافلينه من الناس. قال ليه؟ كان بيستحمى، أغمي عليه جوا المويه، يا إخوانا العين دي حق. قال لك: لم يقم في مكانه، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: أيعمد أحدكم إلى أخيه فيقتله؟ إن أعجبك شيء من أخوك فبرك، قل شنو؟ ما شاء الله، تبارك الله، سم الله واذكر الله. ثم قال: فليغتسل له. وهذا دواء السموم يا إخواننا، دواء السم.

قال: الزول الطقاك عين يغسل لك داخلة إزاره، يشطفها لك في موية، الموية بتاعة الفنيلة الداخلية بتاعته دي ولا العراق اللي فوقه عرق ده، تكبه فوق راس الزول يطقه عين، تبقوا كويس. ده في البخاري بالمناسبة، اوعك تنكر، هذا حديث في البخاري، علاج العين. قال: من أمر أن يغتسل فليغتسل لأخيه، لأن الرسول عارف في ناس، لو قلت له اغسل لي عراقي، يقول لك: بعيد يخنقك، يقول لك: أنا خلي الموية منه. قال عليه الصلاة والسلام: ومن أمر أن يغتسل لأخيه فليغتسل، ويغتسل ممكن يتوضأ، يتوضأ في ماعون ويشيل الموية دي يمشي يكبوها في الزول، يطقوه عين، يكبوها دفقة واحدة من خلفه. ابن القيم قال: سميت بالعين لأن العين أقرب المنافذ إلى الروح. أولم يقل صلى الله عليه وسلم: إذا خرجت الروح تبعها شنو؟ البصر، ليه البصر؟ لأن البصر أقرب شنو؟ المنافذ إلى شنو؟ إلى الروح، العين ما حارة، الروح هي الحارة، ليه؟ قال ابن القيم هنا في المدارج: وقد يكون الشخص معيانًا وهو أعمى. من اشتهر بأنه معيان، هل يجوز للحاكم حبسه؟ عند الحنابلة يجوز للحاكم حبسه، لأن ذلك دفع ظاهر عن المسلمين. في زول عينه حارة طوال اشتهر، أي زول عارفه منه، بخافوا منه، والله أنا في حتة الناس لما بيشوفوه ما بيعملوا حاجة كويسة، بيلاوزوا منه ملاوزة شديدة، داء نفس سمية، تكيفت بنفسية غضبية، قد يكون فيها حسد أو كذا. ويا إخواننا ما كل حاسد يستطيع أن يكون معيانًا، وإن كان الأغلب في الحساد أنهم شنو؟ فقال ابن القيم: يحبس، وعلى إمام المسلمين إطعامه وتصريف أهله، لو عنده ذرية يأكله ويشربه وكذا. قال ابن القيم، شوفوا الكلام بتاعه: ذكر ذلك غير واحد من الفقهاء، ولا ينبغي أن يكون في ذلك خلاف، لأن هذا من باب نصيحة المسلمين ودفع الأذى عنهم. يعني العين حارة، يشهدوا عليك ليه في المحكمة؟ طوالي يدخلوه الحرس، لكن ما يشيلوه الطوب ويشغلوه، لا يقعدوه في أوضة مكيفة ويجيبوا له أكل لحد ما يعالجه. أما يا إخوانا في شيء فاسد، في زول عينه حارة وهو راقد تجي تكبر على شنو؟ صلاة الجنازة، وهذا كلام باطل ما صحيح.

طيب، ذكر الإمام الدميري رحمه الله تعالى في كتابه حياة الحيوان الكبرى، ذكر أنه يتكلم عن طبائع الحيوانات، قال: الضب هو المعيان في الحيوانات، الضب هو ساحر الحيوانات، أقرب إلى السحر. ولذلك شوف تجد أن الشيوخ في الضلال وأولياء الشيطان الذين يتعاملون مع الجن والسفلي يحضرون السفلي بالضبط، دي معلومة لازم تاخدها، بيجيب الضب يقتلوه لحد ما ينشف، يدقوه يحطوه قدامه ويبدو يقولوا في ترانيم وكده وكده، لأنه الأوفق إلى السحر. الدميري يقول: لو أن ضبًّا من على محل عالي نظر إلى لبن، ثم شققت بطنه لتجدن فيه لبنًا. قلت: وده يوريك أنه المسلمين القدامى كالدميري تكلموا عن طبائع الحيوانات بملاحظة والتجربة ما لا يمكن أن يكون الآن موجود في الغرب، وده ينفع مع ناس البيطرة. في حديث البخاري لما قال الصلاة والسلام: الوزغ يقتل بأول ضربة، فمن فعل ذلك كتبت له مئة حسنة؟ قال: لأنه نفخ على نار إبراهيم، وهذا ورد في سلسلة صحيحة في الأحاديث الصحيحة.

يا إخوانا في ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، والله في فهم كثير من الناس يطلعوا المرة من البيت ويمشوا وشغلوها رئيسة، ما بتنفع. يا ناس الرجل رجل المرأة امرأة، الفوارق لابد أن تثبت. المرأة يا إخوانا تستغيث، ما يعني أذن لكن بالخروج لحاجتكن، ممكن تدفع في قيم المجتمع، تساعد فيما يمكن أن تساعد فيه، ولكن أن يكون الأصل أن تخرج المرأة هذا لا يمكن أن يكون، وإلا انهار المجتمع، لابد أن يكون في زول جوا البيت وزول برا البيت. ممكن يا إخوانا حالات تصيبنا، ولكن أن يكون الأصل أن تخرج المرأة من بيتها هذا ينافي الفطرة السليمة: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، الأصل ده فيه استثناء، أن تخرج للتعليم وأن تعلم إذا جاز ذلك فيما تقدر عليه، وأن تعمل فيما يليق بها، في التمريض، في غيره ممكن، لكن الأصل هو أن يكون الرجل وين؟ في العمل، هذا هو الأصل.

فالمهم ابن القيم رحمه الله تعالى حاول أن يدلل على كلامه في حديثه عن النفوس، قال رحمه الله: إن بقرا تنحر، قال: أولت ذلك بأصحابي يقتلون. قال ابن القيم: ما هي العلاقة بين البقر وبين الصحابة؟ قال رحمه الله: البقر أنفع الحيوانات شنو؟ البقر، والصحابة أنفع الناس للأمة، ما تقول لي، الأمة دي كلها، ما في زول قدام الصحابة. طيب ثانيًا، البقر فيها صلاح وفلاح وفائدة، والصحابة لا يمكن أن يأتيك من ورائهم ضرر. قال رحمه الله: البقر فيه سكينة وتواضع وذلول. رؤيا الجواميس في النوم، إذا رأيت جاموسًا قد مات هذا يعني عظيمًا في المجتمع سيموت، هذا تأويل عند السلف أن رؤيا الجواميس، لأن الجواميس بنسبة البقرة شنو؟

علاقة بين الديك الرومي وأبو لؤلؤة المجوسي، الديك الرومي شرس، وأبو لؤلؤة المجوسي شرس، الديك الرومي ليس من ديك المجتمع، إنما هو عنه غريب، وكذلك أبو لؤلؤة المجوسي. طيب هذا مما تكلم عنه ابن القيم، والأفضل أن نختم هذا المشهد.

ثم قال: ومن الناس من طبعه خنزيري. الخنزير لأنه طبع سيء، قال لك: شوف، دي ملاحظة السلف، قال: الخنزير تضع له طيبات، قال: لا يأكلها، ولكنه يأكل قمامته، بيأكل فضلاته، قذر جدًّا. في ناس برضو قذرين بالمستوى ده، يقدم له الحلال فيختار الحرام ويخلي والعصاير السمحة، يمشي يشرب في، هذا كالخنزير يأكل رجيعه. يا أخي أعوذ بالله، ومن النوع الخنزير، ابن القيم قال منو؟ من يغض الطرف عن المحاسن فلا يذكر إلا المساوي، في ولا ما في؟ أنت الفاضل عندك حاجات كتيرة خير. والله الزول كله يشوفه لك بس غلطه، يمسكه لك غلطه، ده يكرهه لك زاته، ما بيعلمه بقى شنو؟ حسنات هي، وممكن يكون حتى بين أهل الحق والدعوة والخير موجود شخص غلط في موقف، يؤخذ هذا الموقف مقياسًا ومعيارًا فتهدم كل حسناته الماضية، يا إخوانا هذا ضعف في الأخلاق، ضعف في الإنصاف، ده شنو؟ قال: ومنهم من هو طاؤوسي، همه التزين والتريش، بس يعني الشيخ العطر أرقى أنواع العطور، نظيف ضمن الدين، لكن ما عنده علاقة بدينه، بس نظيف. طاؤوسي يهتم بشكله أكثر من شنو؟ من جوهره.

ومنهم أحقد الحيوانات، قال: الجمل، ابن القيم، فإنه لا ينسى، لا إله إلا الله، والله في ناس تعمل له وتغلط عليه غلط واحد، عشرين سنة ما بنسألك، وممكن بعد عشرين سنة، يا أخي ده لا ينسى حاقد. ولذلك قال ابن القيم: هذه علة رعاة الإبل أغلظ من رعاة غيرهم من الأنعام، شوف الناس جاسين جسمه شديد زي شنو؟ زي الإبل. ولذلك ما استرعى الله نبيًّا إلا شنو؟ إلا الغنم، ليه؟ لأن في الغنم سكون ودعة، والله يريد للأنبياء أن يكونوا على سكينة وديعة. ولذلك الجمل أغلظ الحيوانات كبد لا ينسى إساءته. طيب قال: وأحمد الحيوانات طبعًا فإنه معقود في نواصيها شنو؟ الخير إلى يوم القيامة. والله يا إخوانا إلى يوم القيامة دي مهمة، عشان ما تقول: لا، الطيارات والقطر والفي اكس ار، والكامري، قال لك يوم القيامة، الخيل لو قال معقود في نواصيه الخير كأنه كده معقول، لأنه كان الحاجات التانية مظهرة، لكن قال شنو؟ إلى يوم شنو؟ معناها أحسن من الحاجات دي كلها. لكن مش معناه ناس اركبوها لا، لكن فيها خير، يعني مش معناه الناس راكبين الكامري، أنت تقول أنا راكب حصاني ماشي الوزارة. لكن دا أنا أوريه أنه الخيل فيها خير، قال إلى شنو؟ إلى يوم القيامة. قال: الخيل أشرف الحيوانات نفوسًا وأكرمها طبعًا، ولذلك من ساس الخير تطبع به، ومن رعى الغنم استفاد، ومن رعى الإبل كان كبده غليظة، وكان قاسيًا جافًا في طبعه.

ثم قال: حرم الله أكل السباع والجوارح والطيور، لما تورث أكلها من شبهة أو من التشبه بها. شوف بالمناسبة في حاجة مهمة جدًّا، هنا ذكاء ابن القيم، قال: الخيل إذا عرف أمه لا يطؤها، فإن لم يكن إلا الأنثى ومن أنجبت وكبر وأرادوا لقاحها عصبوا شنو؟ عصبوا عينه، لأنه عنده من المكارم ما عنده. يقول: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا﴾ شنو؟ ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، تكلم عن بعض الطبائع، من تطبع بطبيعة حيوان، وربما تظهر بعض آثار شبه الحيوان على وجهه لمن دقق. وهكذا تم المسخ في الأولين، ربنا شنو؟ مسخهم إلى شنو؟ قردة وشنو؟ وخنازير، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا في صحيح مسلم، قال: إذا مسخ الله أمة، ولكن ما بينجبوا نهائيًّا، يعني ما هو بني إسرائيل، دي خلقها الله، والخنازير شنو؟ وخنازير قاعدين لكن ما عندهم سلالة، افهم هذا الكلام مهم بالمسألة، كويس؟ قال عليه الصلاة والسلام: إذا مسخ الله أمة شنو؟ قطع نسلها. وفي آخر الأمة، في أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سيمسخون إلى قردة وخنازير، هكذا قال عليه الصلاة والسلام: يبيت أقوام من أمتي قرب علم يعني جبل، على لهوه وخمرهم وقيناتهم، والخمرة شغالة، قاعدين وحفلة، المغنية تغني، قال: أصبح الصباح وقد مسخوا إلى قردة وخنازير، هكذا قال عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق.

هذه المشاهد، مشاهد المعصية اللي يسموها ابن القيم شنو؟ مشاهد المعصية شنو؟ الحيوانية، أن بعض الناس لا يستفيد شيء وهو كالحيوانات في عصيانه، هذا المشهد أهل الضلال. أما مشهد أهل الطاعة، الثمانية شنو؟ مشاهد لأهل الطاعة في المعاصي لما تقع المعاصي.

وحتى تستغرب أنا أقول لك شيء عشان تتبسط شوية، ولدي يزور حديقة الحيوان ويعود يحكي لي كوصف عيان شو شافه بعينه، يقول: يا أبتي إني رأيت مشاهدا الحليم هناك كالحيران. الولد جاني جنبي، أنا شفت لي حاجات في جنة الحيوانات يعني حيرتني: إني وجدت الذئب يظهر بأسه في نعجة منهدة الأركان، ورأيت ديكًا متخمًا شبعًا ولم يرمي الفتات لجاره الجوعان، ورأيت ليثًا خائرًا متخاذلًا وعرينه بقيادة الجرذان، رأيت صقرًا غافلًا وأناثه مفتونة بالبوم والغربان، الخيانة الزوجية، ورأيت قردًا فاسقًا متلصصًا يرنو إلى أنثى لدى الجيران، ورأيت دبًّا كالكثيب ضخامة ويظن قامته كغصن البان، ورأيت ثورًا قد يظن خواره شدوًا كشدو بلابل البستان، ورأيت للحرباء ألف عباءة لتبدل الأحوال والأزمان، والثعلب المكار يمشي خاشعًا متظاهرًا بالزهد والإيمان، فصرخت: اقصر يا بني ولا تزد وصفًا، فتلك حديقة الإنسان. هل ده شيء ولا ما في البشر؟ للذئب أرقى من بني الإنسان إن هم عاشوا بغير منهج الرباني، بني آدم بدون شريعة وأخلاق هو البهايم، الذئب أحسن منه. الأوصاف دي بتلقاه في البشر؟ هل رأيت قردًا فاسقًا متلصصًا يرنو إلى أنثى لدى الجيران؟ لاقى ولا ما لاقت؟

هذه مشاهد المعصية شنو؟ الحيوانية التي تحط الإنسان من قمة الكرامة إلى حضيض البهيمية والحيوانية والشهوانية، نسأل الله السلامة والعافية. نكون بذلك قد وصلنا إلى نهاية درس اليوم ولم ننتهي بعد بمنزلة التوبة، أسأل الله تعالى أن يوفق وأن يتقبل، وبارك الله فيكم، والسلام عليكم.

للاستماع إلى المادة وتنزيلها

mohamedsayed.com/halqa/8/شروح-الكتب/شرح-كتاب-مدارج-السالكين/

تابع الحسابات الرسمية للشيخ

فيسبوك
MohammedSayedHaj

يوتيوب
@msayedhaj

تيليجرام
@msahaj

قناة واتساب
قناة الشيخ

إكس
@mohamedsayed_sd

الموقع الرسمي للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله · mohamedsayed.com